لقاء الحضارات

دكتور نور الدين حاطوم

ذات يوم فى عتيق الزمان صحا الجو فخلق الإنسان جماعات قليلة حدباء تدب على أديم الأرض كالقطعان . منتقلة من مكان لمكان ، ساعية وراء رزقها مما يقع تحت يدها من طير أو حيوان أو ثمار أو أعشاب .

فى هذه البيئة الطبيعية الأولى ، كان الإنسان ، كالحيوان المفترس ، يجدب الغابات معتمداً على قواه . وكان أمله الوحيد ، وبما أوتى من ذكاء ، أن يسود الأرض ، ويلتمس وسيلة تحقق له الظفر على سائر الحيوان . ولعل أول سلاح تزود به ، ليدافع عن نفسه ، أو ليهاجم به غيره . كان حجراً خشناً ، أو هراوة ، أو عصا . وما كان ليشغل فكره بهم من هموم الدنيا سوى أن يشبع غرائزه ، فيصطاد إذا جاع ، ويستجم إذا تعب ، ويقيم حيث يطيب له المقام فى كهف ، أو تحت شجرة ، أو أى مأوى يراه أمامه .

وكان عليه أن يتفاهم مع قرينته الطبيعية أو أقربائه من الرجال ، فلجأ إلى الإشارات والحركات والرموز وتقليد أصوات الطبيعة ، ونطق فخرج من حياة الحيوان إلى حياة الإنسان . ثم بدأ يظهر صفاته ومواهبه فى البحث عن الأمن والاستقرار بعد الخوف والترحال .

وإنا لنجهل الزمن الذى استطاع فيه الإنسان زراعة الأرض واستنباطها . فقد ظلت هذه البداية سراً من أسرار التاريخ . ومن يدرى أن المرأة أول من لجأ إلى الاستقرار من بنى الإنسان لما بها من رقة الطباع ، وضعف الجسم ، فألقت بعصا التيار ، تحت ضرورات الحمل ، بينما كان الرجل يشغل وقته بالصيد وجمع القوت ؟ ! ومن يدرى بعد أن الزراعة كانت أول اختراع حضارى حققته المرأة عندما تشبثت بالأرض لتخفيف آلام المخاطرة فنبشت بأناملها التراب ، ونبت البذر نباتاً حسناً . وأصبح الإنسان منتجاً للغذاء ، يفكر بمستقبله ، بعد أن كان هائماً على وجهه لا يفكر بغده ! ؟ ومنذ تملكه هذا التفكير بدأت أول مرحلة حضارية ، وانتقل فيها من حياة التنقل إلى حياة الاستقرار .

وإذا خرج الإنسان من حيوانيته بالنطق . وبدأت الحضارة بالزراعة ، فقد بدأت الصناعة بالنار ، ولم يكن الإنسان فى الغالب لها مخترعاً ، وربما كانت الطبيعة لها كاشفاً ، من حفيف الأوراق . أو تمايل الأفنان ، أو من شرارة انبعثت عن صاعقة خاطفة ، أو اختلاط بعض المواد الكيماوية مع بعض . فما كان منه إلا أن قلد الطبيعة وأنار طريقه فأمن شر الظلام والبرد ، ثم أفاد منها فى الصناعة وصهر المعادن ، وجعل منها إلهاً يعبد ، ووطناً يحن إليه إذا نأى عنه ، ودليلاً مرشداً إذا ضل به السبيل .

وهيأت الطبيعة المجاورة له وسائل عيشه من النبات والحيوان والتراب ، وتوصل إلى حياة التبـــادل ، فبدأ عتالا يحمل أشياءه من مكان لمكان على سطح اليابسة ، أو على شجرة عائمة على سطح الماء ، وشرعت حركة التجارة بالمقايضة إلى أن انتهت أخيراً بتبادل العروض والنقود فى ظل الحضارات التاريخية .

وأدت الزراعة إلى الملكية الخاصة وتوسيع هذه الملكية ، وإلى تحصين المرأة والاعتراف على الأولاد والإرث ، وتوزيع العمل ، وتفاوت الأفراد بعد المساواة النسبية ، وإلى انقسام المجتمع إلى طبقات .

وبدأ تنظيم المجتمع البشرى فنشأت سلطة الدولة من وجود زعيم قوى دينياً كان أو علمانياً ، وترعرع العلم من محاولة التغلب على قوانين الطبيعة على أيدى الكهان ، ومزج الألوان بالألوان ، والسحر والطلاسم والكهانة والعرافة ، كما بدأ الأدب بالشعر فى أوساط الرعاة ، والدين من الرهبة التى تملكت البدائى من قوى الطبيعة المحيطة به ، فراح إلى رجل الدين يطلب العون والمواساة لتخفيف آلامه فنشأت العبادة والمعابد والأضاحى والمذابح والسدنة وما إلى ذلك من تسلسل كهنوتى لا يقع تحت حصر . وراحت الأباطيل والخرافات تشيع عن تأثير النجوم فى طباع البشر ومصيرهم ، وما زالت هذه الأباطيل حية إلى اليوم عند متشائم منهم ومتفائل ممن يبحثون عن الطوالع فى الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية وشاشات التلفزيون. ومن يدرى بعد كل هذا أن ما نسميه أباطيل وحديث خرافة ليس إلا نوعاً من الخطأ نسميه العلم .

وما زال الناس يناقشون عن أصل الفن ، فهل نشأ من الغريزة أو إبداع

الإنسان ؟ وما هى صلته بالجمال ؟ ولم نعجب بهذا الجمال ونسرح الطرف فى آياته ، بل لم نحاول أن نبدعه من جديد ؟ ويبدو أن الرغبة فى التزيين وتجميل الجسم البشرى كانت فى أصل الفن ؛ ولا يغرب أن يكون اللباس فى البدء نوعاً من الزينة أريد به تحويل الرغبات الجنسية أكثر من حماية الجسم من البرد ، كما أريد منه أن يكون سلاحاً للحياء والحشمة والعفة . كما لا يغرب أن يكون أصل الحب من هذا الحجاب الحاجز الجديد الذى صنع خصيصاً ليلهب الخيال ويقرب القلوب . فكان حلم . وكان موعد أو كان لقاء .

وما زال التفاهم بين بنى البشر بالإشارات والحركات والأصوات والرموز يقدح زناده ويشعل ناره إلى أن اخترع الإنسان رموزاً صغيرة تعبر عن عواطفه وأفكاره وخلجاته ونوازعه ، فسماها الكتابة ونقلها إلى أجيـــاله من بعده تنطق عن كل ما أنتجه الإنسان فى الزمان والمكان ، وما يحيط به من عوالم ، فكان التاريخ ، وحقق الإنسان بهذا الاختراع العظيم العجيب مرحلة فاصلة حاسمة على درب الحياة الطويل بين ما قبل التاريخ والتاريخ .

وهكذا أبدع الإنسان البدائى أسس الحضارة وأشكالها ، ومظاهرها المختلفة ، وما كان ليتحقق له كل ذلك بسهولة ويسر . ففى وسط الفوضى واللبس والغموض والظلام والإشكال شق طريقه ليمر من حياة الحيوان الأعجم إلى حياة الإنسان العاقل بين عديد السنوات ، وطول التجارب ، وتكرار التلمسات ، وكثرة الإخفاق ، إلى أن فاز بالنصر المبين فى إشادة صرح الحضارة المتكامل البناء على الدوام .

وخلافاً لما يزعم ، بدا أن الإنسان البدائى ، إنسان الكهوف والمغاور ، كان ذكياً عبقرياً أريباً ولا تقل مهارته عن مهارة الإنسان الحديث . والفارق الوحيد أن الحديث يمتاز عن البدائى بتراكم المعـــارف والأدوات والوسائل أكثر من تفوق الذكاء نفسه ، فلقد كان الإنسان البدائى يحل المشاكل التى تعرض عليه فى حياته اليومية بقوة الفكر المبدع معتمداً على نفسه ، ويخلق من لا شىء أشياء كثيرة : لقد أطلق الإنسان البدائى جميع صفاته الإنسانية ودشن أنواع السلوك التى تعتبر أساساً للحضارات الكبرى ، وأبدع فزاد إبداعه فى قوته وقوة بنى الإنسان فى الأجيال المتعاقبة عبر الزمان . وهكذا نجد الحاضر بصوره المختلفة مديناً للماضى البعيد .

ولا يعلم على وجه الصحة والدقة نشأة هذه الانتصارات الحضارية الكبرى . ومن السهل لتفسيرها الاعتماد على الظواهر والاحتمال والتخمين والافتراض . وأن ما أتينا به من تعليل أو تفسير غير قاطع أو نهائى . وما ذكرناه إلا لنقرب إلى الأذهان أن هذه الانتصارات البشرية يمكن أن تفسر على هذا النحو أو ذاك . وما من مانع يحول دون تفسير آخر مقبول ومعقول . وما زال عالم ما قبل التاريخ مجهولا ، وما نعرف عنه قليل جداً من كثير جداً جداً . وكثيراً ما يخدع الواقع الفكر ، ويخيب الحس النظر ، ولكن المهم أن نبعد الإيضاحات الجانبية بالاعتماد على المناخ والحاجات والاقتصاد ، فليست هذه إلا إمكانيات وضعت أمام الإنسان الذكى الصادق النظرة ، المحب للاطلاع ، القوى الانتباه ، الذى التفت إلى ما يحيط به فحاول الإفادة منه وتسخيره لصالحه .

ومنذ العصر الحجرى الحديث لازم التطور فى الحياة والتقنية والفكر والفن تطور اجتماعى . ولكن من الصعب التعرف به نظراً لفقدان الوثائق المكتوبة . ومهما يكن فقد دشن هذا العصر حياة الرعى والزراعة ومجتمع البداءة والاستقرار ، ثم تلت ذلك تبدلات جديدة تسلسلت على فترات زمنية طويلة حولت الاقتصاد الريفى والزراعى إلى اقتصاد عمرانى مدنى ، وحياة القبائل إلى ممالك وإمبراطوريات .

ظهر التحول الأقدم حوالى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد فى بلاد الشرق الأدنى القديم وحوالى ٢٠٠٠ فى كريت ، وتكرر فى الألف الثانية فى الصين ، وهيأ مجىء الهنود الأوربيين فى منطقة الحضارات القديمة تبدلات مشابهة تحققت فى الألف الثانية فى آسيا الصغرى وفى سورية ، وفى الألف الأولى فى إيران والهند وأوربا . ثم تحول عالم البحر المتوسط بأغريقية وروما ، وولد تبدلات هامة جديدة يمكن اعتبارها أصلا لمرحلة أخرى . وفى أمريكا كان التطور متأخراً وغير تام . ولم يظهر إلا فى العصر المسيحى عند الماياس والتولتيك والآزتيك وسكان بيرو . ومما يلفت النظر أن هذا التطور قد تم بالقرب من الأنهار وفى ظل الانعزال . وإذا أردنا حصر الحضارات على المصور الجغرافى لوجدناها ضمن شريط ضيق يطوق العالم القديم بين درجتى عرض ٢٠ و ٤٠ شمال خط الاستواء ، كما يطوق العالم الجديد بين مدارى السرطان والجدى . أى فى مناطق معتدلة نسبياً ، خلو من الجمديات والجفاف والحر القائظ .

وفى العالم القـديم تشكلت النواة الأولى ، ونمت شجرة الحضارات على ضفاف الأنهار الـكبرى : النيل ، دجلة الفرات ، السند والقانج والنهر الأصفر حيث أوجدت الفيضانات الدورية شروطاً مواتية للخصب وحركة الأرض . ولـكن الأراضى التى تغمرها المياه تطلبت تنظيماً وتنسيقاً وعمليات هامة فى التجفيف وحفر الأقنية والرى ويلفت انتباهنا خاصة ، من كل هذه المناطق ، بلاد الشرق الأدنى القديم . فقد كانت تمتاز بسبق حضارى ، وتعتبر أقدم مراكز الحضارات الـكبرى ، وبإشعاعها المبكر نحو إيران والهند والمتوسط ، وبماضيها البعيد وهو الوحيد الذى وجدت له آثار وأطلال يمكن بطريقها استشفاف الماضى وإعادة بنائه .

لقد سلك إشعاع هذه الحضارات مجرى دجلة والفرات والعاصى والأردن ، ثم اجتاز هضاب آسيا الصغرى ، وانتشر فى الوديان الـكبرى حتى شواطىء المتوسط وبلاد بحر إيجه فى الغرب ، وحضارة الهند قبل الآرية التى كانت معاصرة لحضـارة السومريين وترتبط بها بروابط وشيجة .

وتضافرت فى هذا الإشعاع الحضارى القديم عوامل متعددة كالمبادلات التجارية والجاليات الأجنبية والحملات العسكرية والهجرات الداخلية والانصهار السياسى فى بوتقة الوحدة . وأوجد الزحف الصناعى والمد التجارى حاجات جديدة ومراكز إنتاج جديدة ، واندفع بهجرات خارجية نجمت عن تدفق الساميين الذين ما فتئوا منذ الألف الرابع ينتشرون فى سورية وفى بلاد ما بين النهرين ؛ وعن تدفق الهنود الأوربيين فى هذه البلاد ، فى الألف الثالثة ، وتكاثرهم فى الألف الثانية وتدميرهم الإمبراطوريات الشرقية فى الألف الأولى .

وحول هذه المراكز الأولى فى العالم القديم انتشرت الحضارة ، ولـكنها ظلت محدودة الإشعاع ، متماثلة بالرغم من اختلافاتها الأصيلة الموضعية ، ويبدو ذلك فى الخزف والتعدين والبناء والتقويم والتعداد والعقائد والطقوس والفنون ونمو الثروة وتشكل الطبقات الموجهة ومركزية السياسة .

وإذا صعدنا بالتاريخ المـكتوب إلى ٦٠٠٠ عام على الأقل لوجدنا فى منتصف هذا الدور ، أن الشرق الأدنى كان مركز الحضارة البشرية ، وعلى هذا المسرح العاج بالسكان قامت الزراعة والتجارة ، وظهر الحصان والعربة والنقد والتبادل والصناعة

والحق والإدارة وضريبة الدخل والرياضيات والطب وتنظيم الرى وأعمال التجفيف والهندسة والفلك والتقويم والساعة والأبجدية والكتابة والورق والحبر والكتاب والمكتبات والأدب والموسيقى والنحت والبناء والخزف والأثاث الفاخر ووحدة الزواج والتجميل والجواهر والشطرنج والنرد وغيرهما من الألعاب .

ولقد ورثت الحضارة الأوربية ، كل هذا بوساطة كريت أولاً ومن ثم إغريقية وروما . وفى الحقيقة أن الأقوام الأوربية لم تبدع الحضارة بل اقتبستها عن بابل ومصر ، كما لم تدشن إغريقية الحضارة بل أخذت منها أكثر مما أعطت ولم تكن إلا وارثاً ومستفيداً من الفنون والعلوم التى أوجدتها حضارة ثلاثة آلاف عام وأتت بها إلى مدن إغريقية بطريق السلم والحرب .

وإذا لم تكن إغريقية مبدعة للحضارة فقد نمت فيها جميع المظاهر الحضارية الاقتصادية والفكرية والفنية والاجتماعية نمواً أصيلاً حتى أصبحت رائدة ومربية لأوربا فى آدابها وفنونها وتقنيتها . ولعل أهم ما أتت به إغريقية من تجديدات كبرى ومكاسب عظيمة كان فكرياً . فقد علمت إغريقية الناس الوضوح والفكر العقلى والتجريبى ، وأدخلت الملاحظة والتجربة ، وقفزت بالفكر العقلى فى هذا المضمار قفزات حقيقية موفقة .

وضع الإغريق أسس العلوم وأعطوها الأسماء التى مازلنا نحتفظ بأسمائها بعد ، وما زالت الحياة الفكرية فى أوربا فى أشكالها السامية تحمل طابع إغريقية . لقد عرف العقل الإغريقى بالإعتدال والإنسجام والتوازن المرن المتحرك ، حتى أن الزهد الفلسفى والصوفية أخذا فى إغريقية أشكالاً معتدلة . فكل مافى إغريقية إعتدال وضبط وبعد عن التعصب ونفى الغير . وربما كان لاختلاط الأعراق والجو واختلاف المؤثرات والملاحة والتجارة شروط مناسبة للملاحظة والتفاهم المتبادل تجد فيها الدقة والضبط والمهارة مجالا صالحاً أكثر من مجال القسر والقوة . كما عرفت إغريقية القديمة فى الفن بالبساطة والقناعة وضبط النسب ؛ وفى التقنية بمهارة الإختراع ؛ وفى الفكر بحب الإطلاع والبحث البعيد عن المنفعة . وفى الحقيقة أن الإغريق لم يتوصلوا إلى ما توصلوا إليه إلا بنتيجة هذه الظروف السعيدة التى أحاطت بهم وأعدتهم زمناً طويلاً وأوجدت عندهم هذا التوازن الذين عرفوا به بين قوة التجريد والفكر العينى المشخص

والحضارة الإغريقية بالرغم مما يكتنفها من ظلال ، حضارة شعب نشيط ، فصيح شاعر ، عاقل فنان مفعمة بالتنوع ، غنية بما يثير النفس ويترك فيها انطباعات عميقة وطيبة . ففي عملها الدائب ، النافذ ، المبهجي ، المثمر ، ومثلها العليا في الحقيقة والعقل والحرية والجمال لم تكن مربية لأبنائها فحسب بل لأبناء البشرية . لقد نبتت حضارتها على البحر المتوسط وامتدت منه إلى الشرق ترد جميله ، إن صح التعبير . أو لتستولى عليه بجيش الأسكندر الأكبر الماكدوني وخلفائه السلوقيين وتوصلت إلى قلب آسيا وتركت فيها آثاراً لا تمحى .

وورثت روما إغريقية والشرق ولعبت دور الوسيط والناقل والناشر على مقياس واسع ، وامتازت بقوة توسعها ووحدتها . ودورها التربوي النشيط الذي أخذته عن أثينة واعتبرت ما خيم عليه جناحا النسر الروماني متحضراً وما كان خارجاً عنهما بربرياً . وفي الإمبراطورية الرومانية المترامية الأطراف ساد سلام طويل دام أكثر من قرنين وتحققت فيه وحدة اللغة والحكم والحق ووسائل المبادلات ، كما اتصلت مختلف المناطق الرومانية بشبكة طرق برية وبحرية وصلت إلى الهند والشرق الأقصى وتمثلت روما كل ما استطاع فكرها العملي أن يتلقى من نسمات رقيقة من إغريقية ، واستخلصت من النماذج الهلنستية الأشكال اللاتينية التي أفادت أثر التربية في الغرب . فمن أسبانيا وغاليا إلى الفرات نبتت المباني القومية العظيمة كالفطور ، وعجت المدن المزدهرة بالسكان من كل جنس . وكان الإمبراطور على رأس هذه الإمبراطورية إلهاً .

ولكن هذا البناء العظيم الذي شادته روما كان يتألف من قطع مستعارة ومقتبسة ، لأن روما بعد أن فتحت البلاد بجوقاتها العسكرية ، أخذت تستغلها وتعتمد عليها وتتكيف معها ، حتى أنها جعلت من نفسها عاصمة طفيلية تعيش على حساب الغير : فهي مدينة إلى أغريقية والشرق بتقنيتها وأدواتها وطرق إنتاجها وتجارتها وعيشها . ولم تأت بأي إسهام للعلم ، حتى أن سلطة أباطرتها وتأليههم والإدارة المدنية والعسكرية فيها كانت تشبه الملكيات الكبرى الإيرانية والهلنستية .

أما ما امتازت به روما فكان في اللغة والبناء والحقوق وهي من مآتيها الشخصية فقد كانت اللاتينية متينة واضحة مرنة . وأداة للتعبير والثقافة . وكان المهندسون

المعمارون الرومانيون متعهدين أكثر منهم فنانين ، ولكن هذا لم يمنعهم من استخدام الطرق الإغريقية والشرقية وتجديدها حتى ظهرت هذه المبانى الرومانية على جنبات المتوسط شاهدة على عظمة الرومان وحضارة الرومان . أما الحق الرومانى فكان أقوى آبدة حقوقية عرفها التاريخ قبل العصور الحديثة . فقد صهر فى بوتقته مذاهب الشعوب الخاضعة ومبادىء الفلسفة الإغريقية ، وأخرج منها فقهاً رومانياً ما زال يرجع إليه كمصدر قديم من مصادر التشريع . ولقد وسع هذا الحق الرومانى سيادة القانون ، ونقل إلينا فكرة الدولة المجردة ، وسلطة هذه الدولة ، وفكرة الحق التى بناها الإغريق على العقل والعدل ، ونسقها بتماريف صحيحة وتصانيف واستنتاجات كانت للفكر أداة تربوية خالدة .

غير أن الدولة الرومانية لم تقاوم الزمن كإمبراطوريات بلاد ما بين النهرين والصين ، لأنها كانت تعيش على الغير وتنقصها المرونة والاختراع فضلا عن أن هذه الدولة عرفت بجمود الأطر وضعف الحركية وأخذ كل شىء على عاتقها . وأدى كل ذلك إلى انحطاط التماسك الرومانى وخرابه فعانى فى ظل الإمبراطورية الدنيا أزمة لازمته طويلا . وما كان من الغارات البربرية الكبرى إلا أن عجلت بالمصير المحتوم .

وفى العصر الوسيط سادت حضارات ثلاث كان لها الأثر الأكبر فى تكوين الحضارة الحديثة فى إشراقاتها الأولى وهى الحضارة البيزنطية والإسلامية والأوربية . لقد انتقل مركز الثقل بعد تداعى الإمبراطورية فى الغرب الأوربى إلى القسطنطينية ولم تبق الحضارة بانسحابها سوى آثارها . بيد أنها تألقت تألقاً جديداً كسفت أمامه عظمة روما الغربية . وكان هذا التألق ثالث ازدهار عرفه العناق الودى بين الإعريق والشرق . فقد تشكل فى إيونيا ، وتفتح فى الممالك الهلنستية ، ولكنه كان فى هذه المرة الثالثة أشد بريقاً وزهراً وبهراً للأبصار. فقد تجلى فيه أبهة البلاط والثروة واللون والتزيين والعواطف الدينية والأسرار المسيحية التى عدلها الفكر اليونانى بقناعته وبساطته . ورأت الإمبراطورية البيزنطية تجديداً فى الحياة السياسية فى ظل جوستنيان شمل شواطىء المتوسط حتى إسبانيا ولكن هذه العودة الإمبراطورية إلى الغرب الأوربى كان دون عد أمام الفتح العربى . وظلت الإمبراطورية خلال ألف عام فى دور الدفاع إلى أن هاجمها الأتراك العثمانيون وقضوا عليها .

وحصل تجديد فى الحياة الاقتصادية فتح آفاقاً جديدة نحو الشرق الأقصى بواسطة البحر الأسود والبحر الأحمر . ودخلت إلى أوربا زراعة التوت والمنسوجات والحرير والأقمشة والتقنية الشرقية والعطور والعاج والتوابل والمعادن والأحجار الكريمة والفسيفساء المختلفة الألوان على أرضية زرقاء أو ذهبية ، وتجدد الفن فى بناء القباب البيزنطية ، وتعددت أشكال البناء ونماذج التصوير والتزيين والأناشيد الليتؤرجية والحماسة الدينية . ولكن بيزنطة نامت على الحضارة القديمة والمجد التليد فضعف عندها زخم الاختراع كما نضب معين الفكر .

وفى الحقيقة أن بيزنطة جمعت ودعت ونشرت الأبجدية الإغريقية والثقافة فى الأوساط السلافية بين البلغار والصرب والروس والعرب ، واقتنت أكبر قسط من التراث القديم غزت به أوربا فيما بعد ، وحملت مشعل الفكر عالياً ونقلته ، ولكنها لم تجدد فيه إلا قليلا .

وفى بلاد العرب ظل التخمر الذهنى الواعى يعمل عمله فى العقول والقلوب إلى أن تفتحت الحضارة العربية — الإسلامية . والجدير بالذكر أن هذه الحضارة نمت فى بلاد تعتبر من أعرق البلاد التاريخية حضارة ، فعلى أرضها نبتت شجرة الحضارات القديمة بكل مقوماتها الأصيلة ، وفيها تهيأت أسباب التقدم الحضارى بالنسبة إلى بقية أجزاء العالم الأخرى ، وكانت هذه الحضارات بمثابة المجموعة الحضارية الأم ، وعم إشعاعها جميع أرجاء المنطقة ، وجعل كل جزء منها يأخذ عن غيره ويعطى ما عنده . وعلى هذا النحو تم الاتصال الحضارى بين الأجزاء . ولم تخرج الحضارة العربية — الإسلامية عن حدود هذا الأخذ والعطاء . فعند ما انتشر الإسلام فى شبه الجزيرة العربية وامتد فى بلاد آسيا وإفريقية كان العرب يدعون إلى الإسلام وينشرون اللغة العربية ويتمثلون الحضارات المختلفة فى البلاد التى حلوا بها . وكانوا مؤثرين ومتأثرين ، وناشرين ومبدعين لحضارتهم العربية — الإسلامية التى استمدت روحها الطيب من أصالة الشعب العربى العريق النشيط ، هذا الشعب الذى استطاع أن ينشىء من تراثه الحضارى العريق حضارة جديدة اشتركت فى تكوينها وتنميتها هذه الشعوب المتعاقبة التى سكنت المنطقة على مر العصور التاريخية . هذه الشعوب التى تكررت وتقطرت فأنتجت الشعب العربى المؤمن بالقيم الروحية والمثل الإنسانية العليا

التى نقلها ونشرها بين الشعوب الأخرى ، وجعل هذه الأخيرة تدين بها وتسهم فى تعميمها ونشرها .

والمتتبع للتاريخ العربى يرى أن العرب خدموا الحضارة الإنسانية بما قدموه من منجزات فى عالم الأدب والعلم والفلسفة والدين والفن ، كما يرى أنهم لم يقصروا فى أى ميدان من الميادين ، فضلا عن أنهم كانوا رسل حضارة وواسطة اتصال حضارى بين الحضارات القديمة والحضارة الحديثة .

وكان يقابل هذا التألق البيزنطى والتفتح العربى خيال غربى ران على أوربا قرابة سبعة قرون ، وطوال غارات كانت تتعاقب عليها بين فترة وأخرى فتعمل فيها الهدم والتخريب . وظلت هذه حال أوربا إلى أن احتكت بالشرق والإسلام ونهلت من النبع الصافى فى مختلف الميادين ، وأخذت عنه الشىء الكثير ، فاخضر العود بعد الجفاف ، وتفتح الزهر بعد طول الشتاء والبرد ، واستيقظت أوربا بعد نوم قلق ، وجرى فى أوربا ما جرى فى إفريقية البدائية ، فتأثرت بعوامل متعددة ، ودفعات خارجية وعفوية داخلية ، ومبادهات فردية وجماعية ، وعاودت السير فى ركب الحضارة وتفجرت فى القرن السادس عشر عن نهضة ظلت تعمل بدأب وتقدم إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم .

والحضارة الحديثة التى نعيش بين ظهرانيها حضارة عامة لا تتعلق ببلد من البلدان ، أو بشعب من الشعوب ، لقد أسهم فى بنائها أبناء الانسانية جميعاً فغدت لهم تراثاً ونتاجاً دائماً وخالداً ، ومن حقهم أن يفخروا بها لأنها نتيجة جهود مديدة وأعمال دائبة وأفكار نشيطة مجددة وعبقريات أصيلة ، وأطماح بعيدة وزمن عريق . بيد أن الحضارة فى عصرنا الحاضر آخذة بالتسارع والنماء بدرجة تفوق حد التصور . ولا شك فى أن الفضل فى ذلك يرجع إلى تحرر الإنسان من القيود التى كانت تكبل نشاطه وفاعليته عبر الزمان . وتحت مؤثرات كثيرة ومتنوعة . وهذا التحرر جعله ينطلق ويطلق لنفسه العنان فى آفاق المعرفة والإبداع ، ويستخدم قوى الطبيعة والإمكانيات التى تفسحها أمامه ليبدع منها الوسائل التى تؤمن رفاهه وعيشه وتحقق آماله وأحلامه .

ولقد حاول بعضهم تفسير الأسباب التى دعت لنمو فردية الإنسان المبدع . صانع

الحضارة ، باعتبارات عرقية ، أو بجبرية جغرافية مزعومة . ولـكن الذى يجب أن يقال فى هذه المناسبة هو أن هنالك أسباباً أشد وأقوى . ويأتى فى مقدمتها أفول الإقطاعية وإعادة بناء الدولة على أسس جديدة . وتقدم العلاقات التجارية . وتكامل طرق الإنتاج . ونزاع الطبقات . والأزمات . وتحسين مستوى الحياة . وتنظيم العلاقات الدولية والمبادلات الثقافية . واتصال الشعوب ببعضها بين أخذ وعطاء : وإغناء بعضها بتجارب بعض . ولا شك فى أن أوربة أتت متأخرة فى آفاق المعرفة فأفادت من تجربة الإنسانية المديدة وشعت إلى ما يتجاوز ذاتها وحدودها القارية . واندفعت فيما وراء المحيطات لتكتشف العوالم الجديدة وتغنى خبرتها بمعارف تجهلها . ولقد كان من هذا الاتصال ثورة فى الاقتصاد الأوربى ظهرت آثارها فى تغيير قيم المجتمع وهزكيانه من أساسه بنمو طبقات بورجوازية تجارية ومالية لم تكن فى الماضى شيئاً مذكوراً . وارتفعت بجهدها وعصاميتها إلى مصاف الأمراء ؛ كما ظهرت هذه الآثار فى نقل تجربة أوربا الحضارية إلى أمريكا التى تفتحت من إمكانيات ضخمة . حتى أن أوربا لم تعد إلا قزماً أمام هذا العملاق الكبير . وبعد أن كانت أوربا تفخر بحضارتها الأوربية إذا بها تخفف من غلوائها وتسمى هذه الحضارة الناشئة عن اتصال القارتين « الحضارة الغربية » تارة ، و «الحضارة الأطلسية» تارة أخرى .

ولـكن تجربة البلاد الشرقية ومنجزاتها الحضارية بلغت من التقدم درجة أصبح من غير المقبول معها أن تبقى هذه الحضارة كما يريد الأوربيون غربية أو أطلسية ، ونعتقد أن من الخير أن يطلق عليها اسم الحضارة الحديثة والمعاصرة تمشياً مع روح التاريخ والمفهوم الحضارى الواسع والتواصل البشرى الدائم والتسارع الذى يجب المسافات ويجعل القارات قارة واحدة أو بلداً واحداً ، والبشر ، مهما تناءى بهم لزمان والمكان ، أبناء إنسانية واحدة .

وهذا الانفتاح العالمى ، المتسع باستمرار ، مدين ولاشك إلى تقدم العلم والتقنية وتطبيقاتهما فى سرعة النقل والمواصلات . كما وسع التقدم نتائجه فى حقل العلوم الاجتماعية والنفسية . وإذا لم تستطع هذه العلوم أن تراكب العلوم المادية فمما لا شك فيه أنها سائرة فى نفس الاتجاه من التقدم المستمر نحو وضع أفضل يشجع على إطراح المعارف القديمة والعلوم النقلية وما يلابسها من أوهام وتخمينات ؛ وعلى الإيمان بأن

الإنسان يركب الخطر ويقتحم المجهول وينطلق بالظلام ليكتشف لبس هذا العالم الكونى المحدق به ويجعله مفهوماً . وينقل اكتشافاته إلى بنى جنسه دون أن يجعل منها أسراراً وما زال يحاول أن يعمر هذا الكون ، ويخلق من ضعفه الظاهر قوة أمام الموت الظافر ، هذه القوة التى كانت فى إنشاء الحياة وبنائها ولم تكن مجرد أقوال . ومن يدرى أن يوماً سيأتى على البشرية يقدر فيه المؤرخون أن جميع التحولات التاريخية ليست سوى أزمات وظواهر لنمو العقل البشرى الكاسح الذى يتحدى الظلام والمجهول لينقذ الإنسان من حمأ الطين الوحل .

وقد اختلف الحوار فى هذه التحولات البشرية والتطورات التى يمر بها الإنسان من مرحلة منحطة إلى مرحلة أسمى . فرأى رجال الدين أن أسمى ما فى الإنسان من الله ؛ ورأى المفكرون العلمانيون أن أسمى ما فى الإنسان من الإنسان . ولكن المذهب الدينى لا ينفى عن الإنسان قيمة السعى والجد والدأب . وهذا يعنى أن المذهبين يستقطبان الإنسان والسمو به إلى تحقيق إنسانيته ومكارم أخلاقه .

وذهب التفكير إلى أن التمييز بين الإنسان والعالم لا تنجم عنه حقيقة ، وأن العالم خبث ممدنى ، وعلى الإنسان أن يندغم ويندمج فى هذا العالم ليعرف معناه الحقيقى ؛ وأن كل ما أتى به العقل البشرى من أفكار وعلوم وتقنية مع كل ما تضمنته من انعكاسات وردود فعل ونتائج فى المجتمع الإنسانى يجب أن يكون منها تفتح شخصية الإنسان ونموه فى سلوكه العقلى والروحى ، وأن العالم ليس عقلا كله . وأن الإنسان ظل يعانى أزمة وجدان خلال ثلاثة قرون قضاها فى أزمة فكرة الحقيقة وهو يشعر ويفهم ضعف هذه الفكرة إلى أن أعاد النظر فى تقدير قيمة العلم وحدوده . وإعادة النظر هذه فى الموضوعية العلمية تعتبر بذاتها وبما تتضمنه من استعداد وقابلية كسباً ثقافياً وتقديراً للقيم الإنسانية المبدعة القائمة على المغامرات الشخصية .

وفى الحقيقة أن تاريخ الحضارة ، بكل ما وصلت إليه فى عصرنا الحاضر ، إنما هو تاريخ ثورة إنسانية مستمرة قام بها الإنسان على مزاعم الرضوخ والرضى بالقدر المحتوم ؛ أو على إنكار مزاعمه فى تطلعاته إلى الكرامة ، إنه تاريخ إنكار الاستسلام باسم الإنسان ، وأن المعيار الوحيد الذى يجب الاعتماد عليه فى هذا السبيل ، هو الثورة ، فهى التى تنظم الحضارة وتحميها وتبدعها عبر التاريخ وعبر فوضاه واضطرابه.

بالتقدم الدائم . يضاف إلى ذلك أن هذا الاعتقاد وجد صهراً وفى الأخلاق البشرية نفسها . لأن المثل الأعلى لدى الإنسان تبدل أيضاً . وأصبح يقوم على النضال والجهد والتوسع والرقى والتحول وحب التطلع إلى الجديد وعدم البقاء على الرقابة . وعدم الإنصياع للعقبات مهما كانت . وإن كان هنالك شيء من ذلك فالى أجل محدود ريثما يستكمل وسائله ويعد عدته .

ولقى هذا التقدم صداه فى أفق العمل والعمال بعد نهوض الثورة الصناعية . وما فتئت الأطر البورجوازية والطبقة الكادحة فى ازدياد . ولكن الاتجاه العام يسير إلى التخفيف من ثقل الأولى وسيطرتها وتحكمها من حجة . وإلى النهوض بالثانية من حيث تحسين شروط حياتها المادية والاجتماعية والسياسية والثقافية من حجة أخرى . والجهد مبذول للافادة من قوى الإطارين للاسهام معاً فى الحياة القومية بشكل أوثق وأدعى إلى إزالة التناحر الطبقى الذى يمكن أن يهدد المجتمع بالخراب والدمار . ولكن البشرية لم تتوصل بعد إلى تقنية أو قانون يمكن أن يؤمن هذا السلام الاجتماعى المنشود .

والملاحظ فى عصرنا الحالى أن الوعى العام يجتاح جميع الطبقات الاجتماعية . وأن نظام التسلسل الذى يسود هذه الطبقات لم يعد حقيقة مستقرة ومقبولة لامبدل لها . بل هو غليان مطامح ثور ، تخفق حيناً وتنجح أحياناً ؛ وأن التطور بدل معنى القيم ومكانتها . فقد أضعف النخبة القديمة . وهيأ المكان لنخبة جديدة حتى أن مفهوم الزمان قد تبدل معناه . فقد كشفت الشعوب عن تاريخها . ووعت فرديتها وأصالتها . ولم يعد هذا العصر بطلياً أو فلسفياً أو نقياً أو أخلافياً . إنه عصر الحركة والميكانيك المؤسس على العلم الذى يطغى على الحياة الأخلاقية . فبعد أن شغلت مشكلة الزمان الأفكار . وانتهت بها فى الغالب إلى الصوفية أو إلى الخلاعة أو بتعبير آخر إلى الإيمان وعدم الإيمان . أخذ مفهوم الزمان طابعاً إنسانياً وتاريخياً .

ويبدو أن قيمة حضارة اليوم تعتمد على إرادة الوعى وإرادة الكشف . ومن هذه الناحية تنفذ الحضارة إلى الإيمان بالإنسان وقيمه . فلقد جابه الإنسان العالم المجهول وما زال يحاول النفوذ إلى العوالم المجهولة ليكشف كنهها وحقيقتها . وبالرغم من أن مصير الموت ما زال يهدد البشرية ويجعلها تحنى الرؤوس أمامه . فما زال

وهذا المعيار الناجم عن الثورة لا يمكن أن يعيش إلا بالثورة ، فبها يستطيع أن يفجر كل ما يختزنه من إمكانيات الإبداع ، وكل ما يمكن أن يكون . وستظل ثورة الحضارة مشتعلة ولن تنطفىء قبل أن يموت آخر إنسان .

* * *

إن هذه اللوحة التى رسمناها عن تاريخ الحضارة ، تبين لنا أن تاريخ الإنسان يحوم حول علاقته بالمجتمع وتفاعله معه ومع الحضارة التى أبدعها ، وأن الإنسان لم يصبح إنساناً ولم تتفتح مواهبه الإنسانية ، ولم تنم معارفه وخبراته إلا عن طريق المجتمع . ولولا هذا الوجود الاجتماعى الذى وجد فيه الإنسان لما استطاع أن يكون حضارة . لأن اجتماع البشر واتصالهم مع بعض وتفاعلهم مع البيئة أساس حقيقى فى نشأة الحضارة ونموها وتطورها وازدهارها .

وعلى الرغم من أن الأفراد الذين يكونون مجتمعاً من المجتمعات ينشؤون حضارته وينقلونها ، فإن أى حضارة لا بد لها من أن تعتمد على إسهام عدد كبير من الأفراد من المجتمعات المختلفة . والمجتمعات البشرية ، منذ وجدت فى نشأتها الأولى ، وجدت متصلة يأخذ بعضها عن بعض ، ويعطى بعضها بعضاً . وتفيد من تجارب بعضها . ومن هذا التفاعل الاجتماعى الذى تم بين هذه المجتمعات اتسع نشاط الجماعة البشرية ومجهودها الحضارى . والمشاهد أن الحضارات فى نشأتها تعتمد على إمكانياتها ومكتسباتها الأولى فى بيئتها أو مكتسباتها من البيئات الأخرى . فإذا نمت خرجت بشكل موجات تمتد فى الزمان والمكان ، ثم لا تلبث أن تتقلص أمام موجات حضارات وافدة أخرى فتية . ولكن لا شىء يخلق من العدم ، فكل حضارة تنشأ وليدة أجيال ومكتسبات سابقة ، ومربية لحضارة جديدة . لقد كانت حضارات الشرق القديم بسبقها الحضارى أماً مرضعاً لحضارة اليونان . وهذه مربية لحضارة الرومان . ثم دار الدهر دورته فعاد الشرق يحمل مشعل الحضارة لينير حلك العصور الوسطى فى قارات العالم القديم . وليكون بمثابة المغذى والمحضر لحضارة الغرب وامتدادها عبر القارات فى العصور الحديثة . وفى هـــذا المعنى يشترك بناء الإنسانية فى البناء الحضارى المتجدد ، ويزول الادعاء بالتفوق العنصرى والشروط العرقية للحضارة . وفكرة الحضارات الكبرى التى صنعها العرق الآرى . والقول

بأن هنالك نوعاً من البشر من شأنه أن يصنع الحضارة ويفيد منها ويحافظ عليها من الضياع وهو الجنس الأبيض عامة .

والمتأمل فى تاريخ الحضارة يرى أنها لم تكن لتظهر فى قارة دون قارة ، بل ظهرت فى عصور مختلفة . وفى أماكن متعددة على سطح الكواكب . وأن الحضارة من حيث الأصل لا وطن لها ، وأن أرقى الشعوب المتقدمة حضارياً لمدينة إلى تلك الشعوب البدائية فى اختراعاتها الأولى مهما كان شأنها وقيمتها وأن الاختلافات العرقية ليس لها أى تأثير على التاريخ البشرى العام ، لأن القول بنقاوة دم بعض العروق وتفوقها على غيرها زعم باطل لا نصيب له من الصحة فضلا عن أن العلم يرفضه ولا يقره . فمنذ عصور ما قبل التاريخ المتفانية فى القدم والمجتمعات البشرية على اتصال دائم . مهما كان هذا الاتصال بطيئاً أو سريعاً متسارعاً . والاختلاط مستمر ، وعلاقات متواشجة ، وما من عرق أصيل اليوم على سطح الأرض . فقد أسقطت الاعتبارات العرقية من حساب الحضارة وأخذت العلاقات البشرية الدائمة السلم والحرب مكان الصدارة فى تفتح الحضارة وازدهارها .

ومن المسلم به أن أول ما اتجه إليه الإنسان مذ وجد على سطح الأرض كان المأكل والملبس والمسكن . وأن البحث عن هذه المطاليب الأولية كان أقدم نشاط عرفه الإنسان . وبنيت عليه الحضارة وما زالت هذه الحقيقة قائمة مهما اختلفت صور النشاط . وغير أن هنالك عوامل أخرى لها أهميتها . وبخاصة عندما تجاوز الإنسان مرحلة العيش وأخذ يتطلع إلى الحياة الأفضل . فهو لا يرغب فى العيش وحده مجرداً من كل رفاه وزخرف. بل إنه يطمع فى الحياة وفى كل ما يزينها ويجملها رخصة جميلة وجميلة دوماً فى ناظره . وإنا لنشاهد فى تاريخ البشرية أن كثيراً من أنواع النشاط الانسانى الطموح يفترض البذل الثقافى والتضحية والعاطفة . مما هو بعيد عن كل مؤثر اقتصادى . والرأى الذى نذهب إليه هو الأخذ بالأسباب المتعددة المتكاملة التى يعتمد بعضها على بعض ويساند بعضها بعضاً دون الاكتفاء بسبب واحد.

ولا شك فى أن الطبيعة تهيىء إمكانياتها الانسان بقدر ماتخلق أمامه من مصاعب والإنسان بما أوتى من نشاط وفكر يفيد من إمكانيات الطبيعة ويطوعها حسب حاجاته ورغباته . ولكن يجب أن نقر بأن الحضارة بالرغم مما وصلت إليه من تقدم

ورق. مازالت عفنة رقيقة هشة أمام بعض العوامل الطبيعية كالشروط المناخية القاسية والحركات الأرضية التي يمكن أن تؤخر نموها أو تقيد نشاطها أو تطيح بها. وبالمقابل إن بعض هذه الشروط يمكن أن يساعد على النشاط الحضاري .

على أن ثمة بعض الشروط البشرية التي يساعد توافرها على نمو الحضارة وازدهارها كوجود النظـــام السياسي واستقراره واستتباب الأمن ووجود النظم الأخلاقية والإجتماعية التي توجه الناس وتعطى الحياة قيمة ومعنى عن طريق التربية والتعليم والإرشاد . غير أن تدنى الأخلاق والطباع والقيم وتدهور النظام الاجتماعي والأخلاقي والتربوى والاقتصادى يمكن أن يؤدى إلى فساد المجتمع وانحطاط الحضارة واضمحلالها . وبخاصة أن فقدان القوى الخلاقة ، أى سيادة العقل على الغريزة . في نظر شبنغلر . وإخفاق الأقلية المبدعة . في رأى توينبي . التي تؤهلها مواهبها لقيادة المجتمع وتوجيهه في تدبير الاستجابات الملائمة لبعض التحديات التي تعترض المجتمع . وإنا لنرى أن آراء معظم الفلاسفة والمفكرين تتشابه كثيراً في الطور الأخير للحضارة وهو طور التحلل النهائي الذى يقترن بالعقم الفكرى وعدم القدرة على الخلق والإبتكار . ومن هنا تبدو ضرورة : وهى أن الحضاره . باعتبارها إبداعاً بشرياً . بحاجة إلى كل ما يغذيها باستمرار ويحفظها من الانحطاط والضياع .

والحضارة في حد ذاتها روح . ولكن عامل العصر الحاضر يضيف إليها الكم والعدد . وإذا نظر إليها بأنها مجموعة من السلوك والعقائد والنظم التي يحافظ عليها ، وتتحول دون انقطاع ، أو بالتباين بين استهلاك السلع والقدرة على إنتاجها ، أو التفكير بالغد والاستعداد له ، أو بأنها جملة مكاسب ، أو قابلية للحصول على مكاسب جديدة ، أو بالاختلاف بين الكينونة والصيرورة . فيجب أن ينظر إليها من حيث أنها كينونة وصيرورة معاً ، ومكاسب وتمتع بهذه المكاسب وتطلع إلى مزيد من المكاسب الجديدة ، أو بتعبير آخر يجب أن ينظر إلى الحضارة من حيث أنها حاجة إلى بعض المعارف أكثر من تملك هذه المعارف ، وقابلية إلى العمل أكثر من الاعتياد على بعض أشكال العمل ، وبحث عن مظاهر الجمـــال أكثر من تذوق التأمل . إنها استعداد عاطفي نشيط داخلي في الكائن أكثر منه ركام ثروات خارجية فكرية أو مادية . إنها جو من التأثر الدقيق المعقد يحيط بالحياة كلها . وكما يشف الجمال عن

الفكر فى الاشياء ، فكذلك تشف الحضارة عن الفكر فى التاريخ ، ولذا كان نصيب الجهود المبذولة لتحقيق الجمال فيها عظيماً .

ومهما اختلفت وجهات النظر فى الحضارة فهى تبدو كسلسلة متكاثرة ومتنوعة الحلقات لكل ما أتى به الفكر الإنسانى عبر الزمان والمكان . ولذا فإن الحضارات الخاصة تتواكب وتنسجم مع بعضها لتؤلف تاريخ الإنسانية ونموها فى مختلف ميادين الحياة وبما فيها من أنماط معيشة وأخلاق وعلوم وتقنية وعقائد ونظم وآداب وفنون وأديان وفلسفات . وهكذا يجد الإنسان نفسه بالفكر عبر الزمان والمكان .

ومن غير الممكن أن نتصور الفكر دون حريته لأن أعظم ما فى الفكر حريته . إنها شرط إبداعه وإنتاجه ، ولأنها تساعده على التحرر من قوانين الطبيعة ، هذا التحرر صانع الحضارة البشرية وإبداع الإنسان الخالد .

وبعد . ففى هذا العالم المتلاطم بالأفكار والعقائد . بل والوساوس والهواجس أيضاً وبالحرب والخوف من الحرب ، يتملك إنسان العصر الحاضر الضياع والتمزق ، بعد أن أصبحت الحضارة مهددة بالدمار ، وليس الفن التجريدى وأدب اللامعقول والقمصان السوداء الشبيبة الشامخة إلا ظاهرة معبرة عن هذا القلق النفسانى الذى يخامر ذهن الإنسان فيجعله يتساءل عن مصيره ومصير الحضارة التى أبدعها وشادها على مر الزمان بالجهد المتواصل والعمل الدائب الحثيث . ومن عجب أن الإنسان صانع الحضارة ، يقف موقفاً متناقضاً . فهو يخطى على الحضارة فى الوقت نفسه يهددها بالخطر والفناء والقضاء عليها وعلى نفسه أيضاً ، إذا ماركب متن الطيش واستسلم لغرائزه الحيوانية . وأفلت زمام القيادة من يده .

ترى هل يبقى الإنسان أنيساً أم يعود وحشاً إلى حياة الغاب ؟ !